وأخذت ماديته تتساقط عن روحه ليسمو فوقها فى مقامات من الزهد فى الحياة والعمل للآخرة ، وسنطلق على هذه المرحله « المرحلة الرمادية » وفى ظنى أن هذه الألوان الثلاثة التى اخترناها لهذه المراحل تكشف - بدلالتها الرمزية المعروفة فى مجال الفنون التشكيلية - عن طبيعة كل مرحلة منها .

فى المرحلة الأولى نرى البارودى الفارس العربى بكل ما تحمله الفروسية العربية من قيم ومثل أرساها « فرسان الصحراء » منذ العصر الجاهلى ، وأداروها حول ثلاثة محاور أساسية : الصدق والحب والخمر ، ومن هنا نرى شعره فى هذه المرحلة معبراً عن حياته ، وحياة الفارس العربى ، بوجهيها الجاد ووجهها اللاهى ، تعبيراً لا تفتقد [illegible] أسماء [illegible] وذكرياته [illegible] والقناء [illegible] والوجهان الجاد واللاهى فى حياته ، [illegible] التشكيل الشعرى الفنى الجديد الذى يحمل أصالة التراث [illegible] للمزاوجه بين الحياة المصرية التى يحياها فى واقعه ، [illegible] البدوية التى يحياها فى خياله ، ولذلك تتردد فى هذه القصائد الرموز الفنية القديمة التى أصبحت ثوابت فى شعرنا العربى ، وتتردد معها متغيرات العصر الذى يعيش فيه ، والواقع الذى يعيش معه ، فنرى رموز التراث العربى ودلالاته من أسماء الأماكن العربية وأسماء المحبوبات العربيات ، والى جانبها نرى مظاهر الحياة المصرية ، حاضرها وماضيها ، « وأضواء المدينه » التى تألق فى ليالى القاهرة الساهرة ، وأحلام الريف التى تنام وتصحو على السواقى والجداول ومزارع القطن وسنابل القمح ، وأمجاد الماضى الخالد التى تعيش مع الهرمين وأبى الهول والآثار الفرعونية الممتدة على ضفاف الوادى من أسوان إلى الجيزة. ومع كاظمة وحزوى والغضا والعقيق واللوى والبان والعلمَ والخزامى